٢٩

إزالة آثار العدوان.!!

كثيراً ما يجرى بين الدارسين والباحثين والكُتاب ربط بين التاريخ وبين المسرح وإلى حد ما فإن هذا الربط يبدو منطقياً.. وليس هناك تجاوز أن يقال أحيانا مسرح التاريخ ومسرح السياسة ومسارح القتال.. وتعبير المسرح في التاريخ موجود وشائع في الكتابات وعلى الألسنة.. لأنه في واقع الأمر هناك صلة بين الإثنين فالتاريخ هو مجرى الحوادث والمسرح محاولة لتجسيدها.. والتاريخ في واقع الأمر حياة مكبرة موجود فيها صراعات الشعوب والأمم في سبيل محاولتها للتقدم والغلبة.

والمسرح في واقع الأمر حياة مصغرة فيها البشر ونزاعاتهم مع أنفسهم وداخل أنفسهم ومع غيرهم من الناس.. وبشكل أو بآخر هناك ربط بالإيحاء بين التاريخ وبين المسرح.. وبشكل أو بآخر حتى في البيوت المسرحية التى نشأت كالمسرح البريطانى بإنجلترا وتتعدد المسارح داخل نفس البناء مثلما تتعدد مواقع التاريخ في نفس العصر.

على سبيل المثال كنت أقول المسرح الوطنى البريطانى فيه أكثر من مسرح وهناك مسرح رئيسى تقدم عليه الأعمال الكبرى التقليدية والكلاسيكية الكبرى.. وهناك مسرح إضافى وكبير أيضاً تقدم عليه الأعمال المستجدة.. وهناك مسرح ثالث تقدم عليه الأعمال التجريبية.. وهناك مسرح تقدم عليه المحاولات العبثية كيفما تكون وحتى وإن كان العبث فيها محاولات فنية قد تبدو جريئة.. وأعمال ومؤلفات مثل بكيت الذي عمل مسرحية لا يوجد بها إلا متكلم واحد.. وهذه الأشياء كلها عندما تبدأ.. تبدأ عادة على المسارح التجريبية وفى التاريخ أيضاً.. يحدث ذلك فيكون هناك مسرح حديث للحوادث ومسرح رئيسى وثانوى ومسرح تجريبى وفى بعض المرات يكون هناك مسرح عمل.

فى الوقت الذي كنت أتكلم فيه عن أن حوادث الشرق الأوسط تتعدد على مسارح مختلفة.. كان هناك مشهد مخيف موجود فى عمان.. لأن جبل الغضب الفلسطينى كله إنزاح على الضفة الغربية فى الأردن.. وفى عمان فوهة البركان ونحن فى تلك اللحظة فى سبتمبر سنة (١٩٧٠).. أمام بركان ينفجر بنار.

وكانت هناك مسارح أخرى فى القاهرة وهى سياسية وأناس يبحثون عن أنفسهم وأشياء وأوضاع موجودة..

وأظن أنه كان فى ذلك الوضع هناك أطراف عربية وأنا لا أريد أن أظلم أحداً.. أظن أن حزب البعث فى سوريا وحزب البعث فى العراق.. كلاهما يبحث عن أخذ الأزمة فى يده إلى نزع الزعامة إليه فى العالم العربى.. ومرات عندما يطل إنسان على ما يحدث فى العالم العربى فأظن أن العالم العربى هزم نفسه أكثر مما هزم أعداءه لأنهم كانوا فى وقت من الأوقات وحتى اليوم مثل حكمة قالها سقراط فى أحاديثه لتلاميذه **"إن الآلهة عندما تغضب على أحد لا تنتقم منه لكن تكلفه هو أن ينتقم من نفسه ويسىء لنفسه"**.

ويتهيأ لى أنه كانت هناك آلهة موجودة كلفتنا بأن نهزم أنفسنا.. ولكن على أى حال كان هناك مسرح موجود فى بغداد وفى دمشق.. وهم موجودون وفى مواجهتهم لأزمة كبيرة ولقوة رئيسية أساسية فى القاهرة وفى مواجهتهم لأحداث طارئة وفى لهجة خطابهم كله بدا أن يأخذوا مواقف فى هذه الأزمة.. أجدها تقريباً نوعًا من المسرح العبثى الذي يجرب..لكن مشكلة أن كبار المؤلفين المسرحيين حينما يجربون كانوا

يريدون أن يمسكوا بشعور أو بحالة نفسية أو بوهم وتصور أشياء.. لكن هنا لم تكن القوى الموجودة على ساحة التاريخ تتصور أشياء يمكن أن تقوم بها.

خطر لى أن أسلوب المسرح أفضل طريقة لتشبيه السياسة.. وقسمت هذا الحديث لمشاهد.. ونبدأ هنا بالمشهد الأول.. أو أزمة عمان ونحن في ملابسات هذا الصراع المسلح بين جيش (الملك حسين) وفصائل المقاومة الفلسطينية.. وفي اللحظات الحرجة التى وضع فيها الملك حكومة عسكرية ولم يكن رئيس هذه الحكومة قد جاء بعد من القاهرة.. واستقال وغير معطيات الموقف كلها..

وفي ذلك الوقت كان الفريق فوزى قلقا على الجبهة الشرقية وكان يتصور أن هناك جبهة في مصر وهناك جبهة شرقية.. وأنا هنا أتكلم في ميادين القتال وهذه الاتجاهات وهذه المسافات.. فالفريق فوزى وضمن العمليات الموحدة والعمل العربى المشترك أو في المحادثات المستمرة في مؤتمرات دول القمة.. يرسل لرؤساء أركان حرب في سوريا وفي العراق يقول: إننا ندخل لمرحلة جديدة من الخطة..

وكما تحدثنا من قبل في خطة طرابلس تحدثوا مع السياسيين في جبهة واحدة.. الآن نحن نريد أن ننسق ولا بد أن تكون للعمليات قيادة واحدة بمعنى أن القيادة الشرقية وهى قيادة مستقلة تعمل تحت إمرة قيادة عامة للمعركة كلها".. وهذا ما حدث سنة (١٩٧٣) إذ كان هناك قائد عام وهو أحمد إسماعيل موجود في القاهرة وهو قائد الجبهتين.

وحين أرسل الفريق فوزى لسوريا في سبتمبر أثناء تفجر الأزمة في الأردن.. فإذا بالردود تأتى بطريقة غريبة.. أولها من الفريق حماد.. رئيس الأركان السورى.. ومعى هنا الورقة التى أرسلها الفريق فوزى وكنت وزيرا للإعلام وقتها وأرسل لى الفريق فوزى رسالة الفريق حماد التى يقول فيها: إننا نريد أن ننسق خط الاتصال بين القيادة العامة الموحدة للمعركة وبين الجبهات المختلفة".. وكان ذلك القائد موجودا قديما لجيوش وحلفاء تتحرك.. لكن ضمن قيادة واحدة لأنه لا يمكن أن تكون جبهة شرقية وحدها وجبهة غربية وحدها.. ولا بد أن يكون الاثنان تحت قيادة واحدة وهذه القيادة يجب أن تكون في القاهرة لسبب بسيط أن القاهرة بها أكبر الجيوش العربية المقاتلة في خطة العمل المقررة والمنتظرة.

وقال الفريق حماد للفريق فوزى: كيف تقول جبهة شرقية وقيادة موحدة".. وشرح له الفريق فوزى.. وأجد شيئاً غريباً أن رئيس أركان حرب يدخل في الموضوع ويشتمنى ويقول: إن قولكم في عدم إمكانكم ذكر العوامل بعين الاعتبار تحاشيا للتطرق إليها.. فإذا سمحت لنفسك أو لم تسمح فغالبا صحيفة الأهرام الرسمية الممثلة ب(هيكل)ها تكشف الكثير منها رغم الكثير من شكوانا منها ومنه بكتبه الرسمية ومن خلال محاضر الجلسات التى حضرناها معكم.

وهنا لم يرسل الفريق فوزى ليقول له إنه آن الوقت لتحديد سنة الاتصال.. ومكتوب ورقة يشرح فيها الدواعى العسكرية وهو يرد عليه بقوله: لا يوجد ما يسمى بقيادة موحدة فهناك قيادة شرقية لوحدها وقيادة غربية لوحدها ولا أحد قال إن هناك قيادة واحدة".. بينما ذلك كان قد قيل في كل مكان.. وتصور أن الكلام اليوم عن القيادة الواحدة هو عمل سياسى ولكنه ليس عملا سياسيا.. وترد على هذا العمل بالمنطق الحزبى وتقول إننا قرأنا ذلك في الصحف واشتكينا لكم من جريدة معينة ومن كاتب معين".

واندهش الفريق فوزى من هذا الرد لأنه يحدثه في مسألة عسكرية بحتة خاصة بالتنسيق العسكرى وخطوط الاتصال.. فإذا به يرد أنه كتب في الجرائد و(هيكل) قال.. فكتب الفريق فوزى يقول له: "توقعت أن يكون لك رد عسكرى.. لكن تلقيت منك رداً سياسياً تتحدث فيه عن صحفيين وموضوع لا يخصنا"..

ورد عليه مرة أخرى وأجد الرسائل غريبة وأجد وثيقة فيها مشروع رد الفريق فوزى وأجد الفريق فوزى كتب خطاباً وأرسله لى مرفقاً.. وأجد خطى موجوداً يقترح تصحيح شيء على الفريق فوزى وأجد خط (جمال عبد الناصر) موجودا على نفس الوثيقة لأنه أيضاً يصحح شيئاً أو يطلب حجب شيء بمشروع خطاب الفريق فوزى.. لأن التخاطب كان عسكريا.. وجعلها الفريق حماد سياسة..

ووجد الفريق فوزى نفسه يجهز ردا سياسيا على رد سياسى حزبى آخر.. وأجد أن لقاء (جمال عبد الناصر) مع (الملك حسين) الذي أشرت إليه قبل ذلك يبدى خلاله دهشته من أن هناك مناقشة جارية بين الفريق فوزى والفريق حماد ونحن نستغرب منها.. فهم يتحدثون عسكريا وهو يحدثهم سياسيا ودخلوا في موضوع آخر.. وأشار لى أثناء

المحادثات وقال إنهم يشتمون (هيكل) كثيراً وبعد ذلك قال إن أكثر واحد مبسوط أنه يتشتم.. ويظهر أنه تقليد في السياسة العربية.. وهذا هو المشهد الأول.

المشهد الثانى هو أن الفدائيين موجودون في مشكلة في معركة في عمان وكل الناس تحاول أن تجد مساعدة للفلسطينيين فإذا بالقيادة السورية تدفع بقوات اقتحمت منطقة الزرقا شرق الأردن بدعوة مساعدة الفلسطينيين.. وكان العراقيون يقومون بأمر مشابه.. إذ أعطوا أوامر لقواتهم في مرحلة من مراحل الأزمة.. وقالوا إنهم سيعطون أمرا لـ١٧ ألف جندى موجودين في الأردن منذ أيام حرب (٦٧) وهددوا أن هذه القوات ستأتى من وراء الزرقا لمساعدة الفدائيين.. وأمامى محضر اجتماع السفير السوفييتى في بغداد وبين سفيرنا في ذلك الوقت يقول إن العراقيين يهددون بأشياء هم انفسهم يعلمون أنهم لن يقوموا بها وعلى أى حال يشعر الفلسطينيون بخيبة أمل مما حدث.. وقام السوريون بالتقدم بضعة كيلومترات داخل الحدود الأردنية إلى منطقة الزرقا ووجدوا أن الموقف أخطر مما توقعوا فتوقفوا.

وهنا طرف قام بخطوة بالسلاح وتقدم بهذا السلاح لعدة كيلومترات في بلد عربى أيضاً.. ولكن الموضوع كان مختلفا والظرف مختلفا ودون إخطار وفيه عملية اقتحام.. ونحن مرات نتصرف وندفع كتفكير عربى ثم نتوقف ونفكر.. فالتفكير يجب أن يكون سابقا للحركة قبل اى فعل إنسانى.

وبعد دخول السوريين توقفوا بعد أن تبينوا أن الطريق لعمان طويل وأن هناك الجيش الأردنى القادر على التصدى لهم.. وبالفعل حدثت معارك ونشأ وضع خطير للغاية لأنه قد تحقق أمام (الملك حسين) ما سأل الإسرائيليين فيه.

فمن أول زيارة (عبد الناصر) للاتحاد السوفييتى وحدث التغيير الاستراتيجى الذي تحول للمواجهة من المحلى إلى الدولى بدخول الاتحاد السوفييتى وحماية العمق المصرى.. حدث تطور خطير شعر به (الملك حسين) في ذلك الوقت وأنا اشرت إليه.

طرح (الملك حسين) على الإسرائيليين ثلاثة أسئلة أولها: هل يستطيع أن يعتمد عليهم إذا ما قرر مواجهة الفدائيين ويتعهدوا ألا يستغلوا الفراغ أو التخفيف الناشئ على الجبهة لأنه يستدعى قواته للداخل؟.. ثانيها في هذه الفرصة لا يقومون بأعمال انتقامية لكى لا يشوشوا على ما يجرى في الداخل.. وثالثها هل يستطيعون أن يساعدوه إذا ما حدث أن الدول المجاورة هددته أو اعتدت عليه؟..

وكانت إجابات إسرائيل عن هذه الأسئلة أنه يستطيع أن يخفف قواته كما يريد على الجبهة وأنهم مع دول الجوار لا يستطيعون أن يقرروا ويفضلوا أن يناقشوه.. وأن العمليات الإسرائيلية سيقومون بها لأنها متعلقة بأمن إسرائيل.

والآن نشأ الوضع الذي تَحسب منه (الملك حسين) وسأل فيه الإسرائيليين.. وأنا هنا لا أتحدث من خلال قومية أو وطنية أو شيء من هذا القبيل.. أنا أتحدث عن سياسة الواقع بكل الخشونة الموجودة.. ونشأ الموقف الذي يتحسب له (الملك حسين).. وسأل الإسرائيليين فيه أن السوريين دخلوا أرضه.. وسألهم عن مساعدته على الأقل بالطائرات وأن القوات الأردنية جاهزة للدفاع عن البلد لكنها ستحارب وقتها من جبهتين في عمان وفي الشمال إذا تقدم الإسرائيليون.

وفي المشهد الثالث على مسرح التاريخ ومسرح السياسة ومسرح الحرب.. كانت واشنطن قد طلب منها (الملك حسين) كما طلب من الإسرائيليين عن طريق الأمريكان وسأل في البداية الإسرائيليين عن طريق نائب السفير الأمريكى في عمان.. وعاد يطلب من الأمريكان أن يسألوا الإسرائيليين وأكثر من ذلك أنه طلب من الأمريكان تزكية طلبه لدى الإسرائيليين.. وفي واشنطن في هذه اللحظة اجتماع مجلس الأمن القومى وأمامى محضرها وهذا مشهد آخر لأن مشهد واشنطن غريب جداً كما يبدو في محاضر المجلس.

في ذلك الوقت كان الأمر واضحاً فالأمريكان يتابعون كل شيء لكن أمامى محضراً قبل أزمة الأردن التى تصاعدت من الإقليمى إلى الدولى.. وكان الملك يريد أن يذهب الإسرائيليون للأمريكان ليس فقط للموافقة.. ولكن يبدو أن مجلس الأمن القومى عقد اجتماعاً مبكراً ـ أمامى محضره ـ وأجد فيه مناقشات من أغرب ما يمكن.

أجد فيه الرئيس (نيكسون) وقد دار حوار بينه وبين مستشار الأمن القومى ووزير خارجيته يسألهما لو طلب منهم (الملك حسين) التدخل ومواجهة هذا الموقف وكان الإسرائيليون غير مستعدين.. ماذا نستطيع أن نفعل.. وقال مستشار الأمن القومى: هذه اللحظة لا نستطيع أن نساعد (الملك حسين).

وكان عندهم خطط طوارئ لكن السوفييت زودوا أسطولهم في البحر الأبيض وهناك موقف خطير.. قد تترتب عليه مواجهة.

وأضاف المستشار: الموضوع الآخر نحن مشتبكون في حرب في كمبوديا وفي فيتنام والقوات البرية وقيادتها الأمريكية مشغولة بحروب أخرى كثيرة ووعدك الأساسى أيها الرئيس أن تنهى حرب فيتنام وأنت سوف تنهيها بضغط أكبر يؤدى إلى شروط يقبلها الفيتناميون في ظرف أقصى مما هو الآن.. ونحن نزود قواتنا الآن وليس لدينا قوات لنعطيها للملك حسين.. وهنا لا مفر من استطلاع قوة الإسرائيليين وما الذي سيقومون به.

والرئيس (نيكسون) يسأل (كيسنجر) ـ ولدى وثائق تُثبت ذلك ـ في مشهد آخر غريب في مسرح الشرق الأوسط في هذه اللحظة وأجد الرئيس يسأل مدير المخابرات المركزية ويقول له: هل يستطيع (الملك حسين) أن يقف ويقاوم؟

فيقول له : يستطيع.. لكن الدخول السورى سيربكه.. لأنه سيضطر لاستخدام جزء من قواته لمواجهتهم.. لكن لو تُرك كما يشاء سيستطيع أن يصفي هذا الموضوع.

والرئيس (نيكسون) قال: الإسرائيليون لو قلنا لهم سيطلبون أى ثمن.. وهذا كان كلامًا سابقًا لأزمة الفدائيين ولكن لما جاءت أزمة الفدائيين وتحقق طلب (الملك حسين).. وكان موجوداً.. من الأمريكان أن يقولوا لهم ويرجوهم.. وكان يبدو أن الملك شعر بأنهم ليس لديهم قوات للمساعدة.. وأجد محادثة غريبة بين (كيسنجر) ورابين الذي كان سفيرا لإسرائيل في الولايات المتحدة وقتها والغريب أنه في هذه الفترة كانت (جولدا مائير)شخصيا في زيارة للولايات المتحدة الأمريكية فرابين ذهب ليقابل (كيسنجر) ليخبره بأن (الملك حسين) يطلب منهم التدخل وقال له: وأنت وغيرك من البيت الأبيض اتصلتم بى وطلبتم أن نساعد الأردنيين.. وقال رابين: أول مرة أجد الولايات المتحدة تقوم بدور ساعى البريد.

لا توجد غير الدول العربية التى تستجيب لطلب سخى دون أن تسأل عن مقابل.. وهنا يسأل رابين (كيسنجر) "هل تريدون أن ننفذ هذا وفي هذه الحالة سندخل في مغامرة لحسابكم ونحن لدينا طلبات.. أولها مدى الحماية في حالة تدخل الاتحاد السوفييتى.. والسيدة (جولدا مائير)أعطت إشارة للقوات بأن تكون في حالة تأهب ونحن جاهزون لكن نريد معرفة الغطاء الذي ستقدمونه في حالة دخول السوفييت وبعد أن ننفذ هذه المهمة ما هو المقابل السياسى والمادى لهذه العملية".. على الرغم من العلاقات الحميمة بينهما لكن مصالح الدول لا تعرف ذلك.

والمشهد الذي بعد ذلك في المسرحية العبثية التى تجرى في الشرق الأوسط.. أجد أن الأمريكان لديهم اجتماع في مجلس الأمن القومى والاجتماع يقرر أنه لا وسيلة لدخول الولايات المتحدة لأنها مشغولة في جهات أخرى.. لكنها تستطيع أن تغطى أمام الاتحاد السوفييتى وتستطيع أن تقنع الأطراف بالحذر.. ووافقت أمريكا على أن تقوم إسرائيل بالمهمة وأن أمريكا ستتحمل معها تكاليفها.. وقرار بتحريك ٣ حاملات طائرات موجودة في البحر الأبيض.. وتتحرك حاملات الطائرات شرق البحر الأبيض وتدخل البحر الأبيض وتكون إشارة واضحة أمام الاتحاد السوفييتى.

وهنا حينما أجد الرئيس (نيكسون) يقوم بالتحركات في البحر الأبيض لحماية إسرائيل أجده لم يكتف بذلك فرأى أن يُدعم نظريته في اعتماد الوكيل المحلى ويدعمها بأن يسافر بنفسه للمنطقة ويكون موجودا على قطع الأسطول الأمريكى السادس.. وهنا وجدوا خطوط سياسة يمكن أن تعتمد وتؤثر في هذه اللحظة.. وهو يرى التأسيس لها.. والرئيس الأمريكى مستعد ان يمارس دوره على المسرح ذاته فيذهب لحاملات طائراته في البحر الأبيض.. وهذه الأزمة كلها محتدمة بين سوريا والعراق والأردن وفوهة البركان تعمل في الأردن بهذه الطريقة وتقذف حمماً وناراً.

وذهب الرئيس الأمريكى لأسطوله في البحر الأبيض وأجد شيئاً مهماً جداً قام به (نيكسون) قبل أن يترك الولايات المتحدة أنه استدعى السفير الإسرائيلى رابين لكى يقول له إن استعداد إسرائيل للدفاع عن المصالح الأمريكية وعن أصدقائها أمر لن تنساه الولايات المتحدة.. وقد أظهر قيمة كبرى في وقت أزمة.. ورابين في مذكراته يوم ٢٥ سبتمبر يقول إن الرئيس (نيكسون) طلب منى نقل رسالة إلى (جولدا مائير)أنه لن ينسى دور إسرائيل في منع تدهور الحوادث في الأردن والتى كانت بصدد قلب نظام الحكم هناك وقال إن من حظ الولايات المتحدة الأمريكية أن يكون لها حليف مثل إسرائيل في الشرق الأوسط.. وتلك الحوادث ستؤخذ في الاعتبار في كل التطورات المستقبلية.. وعلق رابين في مذكراته أن ذلك كان أهم تصريح لرئيس أمريكى بشأن التحالف المتبادل بين البلدين.

وأظن أن ما كتبه ويليام كونت وهو أحد أبرز المستشارين في الأمن القومى الأمريكى.. وهو سكرتير مجلس الأمن الأمريكى.. واستشهدت بما كتب في هذا الموضوع كثيراً.. وفي هذا الوقت الذي كتبه في أزمة الشرق الأوسط.. وفي هذه الأزمة

بالتحديد قال إن (عبد الناصر) حاول تهدئة الموقف ووقف الأزمة وطمأنة السوريين والعراقيين ومنظمة التحرير.. إلى آخره.. لكن أهم ما حدث في ذلك الوقت وفاة (جمال عبد الناصر) وانتهاء حركة القومية العربية.. وهى عقبة من عقبات السياسة العربية.. وأن من المصادفة أن ذلك يتوافق مع بدء علاقة استراتيجية أمريكية إسرائيلية جديدة هى في الواقع بمقتضاها أصبحت إسرائيل وكيلا معتمدا للولايات المتحدة في الإقليم.

وكانت القوات الإسرائيلية تقوم بالاستكشاف ليلا وتصور المواقع السورية وكانت القاهرة.. لديها حالة قلق بسبب الحرب الأهلية في عمان وحركة قام بها العراقيون بالتشويح والتلويح.. والسوريون في هذه اللحظة دخلوا.. وكان التربص بهم واضحا و(جمال عبد الناصر) كان قلقا للغاية على القوات السورية..

وكانت هناك إشارات التقطت بواسطة شبكات الالتقاط المصرية على شركة أرامكو وهى شركة البترول الأمريكية.. وعندها تحذير بأن الإسرائيليين سيتدخلون في الأردن.. فيجب أن تحموا مواقعكم في السعودية والا يكون أحد في إجازات في ذلك الوقت لأنه قد تنشأ مخاطر عمل إسرائيلى فمن الأفضل أن ينتظروا وألا يكون هناك سبب لأى استفزاز يحدث في أى موقع سعودى..

ولما التقطت هذه الإشارة بالقاهرة حدث على الفور أن استدعى أحد الضباط وأظن أنه كان اللواء محرز مدير المخابرات العسكرية العامة وطلب إليه أن يذهب فورا بطائرة خاصة لسوريا وأن يقابل وزير الدفاع حافظ الأسد.. وأنا لست متأكدا بنسبة ١٠٠٪ أن اللواء محرز هو من ذهب لكن الإشارات التى أمامى تقول انه هو.. وفي كل الأحوال ذهب ممثل شخصى عسكرى سريع جداً إلى حافظ الأسد وزير الدفاع وقتها وأعطاه الصورة كلها وقال له أنتم معرضون لخطر ونحن لا نستطيع أن نتقبل مخاطر جديدة والموقف في عمان في منتهى الخطورة ودخولكم أيضاً هناك وسيكون هناك ضرب إسرائيلى خلال ساعات.. وقال حافظ الأسد إن هناك بالفعل عمليات استطلاع..

وبعد أن وصلت القوات السورية لأراضى الأردن عادت مرة أخرى لكن قبل ذلك نجد رسالة.. وأنا أعرف سفيرنا في دمشق في ذلك الوقت (ممدوح جُبة) أرسل له التعليمات وكان هناك مبعوث عسكرى ذهب لهم وهو اللواء محرز.. وطالبهم بالعودة واستجابوا.. والقيادة المدنية في ذلك الوقت تحركت وذهب السفير المصرى ليقابل الرئيس السورى.. وأبلغه رسالة تقول أن هناك موقفٌ خطيرٌ جداً وأنه يدعوه لمؤتمر القمة..

وقال له رئيس الدولة السورى: موقف سوريا معروف ولم يتغير خاصة بعد أحداث الأردن ولن تجمعنا صلة بالخائن الكبير (الملك حسين) الذي يتهمنا بالجاسوسية وهذا موقفنا ويرجى إبلاغ هذا الرد للسيد الرئيس"..

وقال : "أن هناك ١٥٠ دبابة دخلت الأردن.. ونحن ننوى أن نقدم للفلسطينيين كل ما يحتاجونه.. والبرقيات تنهال علينا من كل الأرض.. تطالبنا بالتدخل الفورى لمنع المقاومة حتى لا يقضى عليها (الملك حسين)"..

وأطلعه على برقية من سفارة طرابلس تقول إن ليبيا قررت التدخل عسكرياً.. والقوات التى ذهبت للـ (رمثا) شمال مدينة عمان.. مكشوفة ومعرضة للضرب في أى وقت.. لكن هنا مسرح السياسة العربية ما يجرى عليه لا يكاد يعقله أحد.. ومشهد آخر لهذه المسرحية الغريبة.. أجد اجتماعا لمجلس الأمن القومى والرئيس (نيكسون) يقول متى ستتدخل إسرائيل وتضرب.. ولكننا لا نريد أن تتدخل إسرائيل.. نريد أن يتدخل طرفٌ ثانٍ مع إسرائيل.. ويسأل الرئيس (نيكسون) هل يتصل ب(شاه إيران).. و(شاه إيران) في هذه اللحظة مهم.. لأن الأمريكان والإسرائيليين تحسبوا في مشاورتهم.. أنه إذا ضربوا السوريين من الممكن للعراقيين أن يدخلوا المعركة.

وطلب الرئيس (نيكسون) في ذلك الوقت من مستشاره للأمن القومى أن يتحدث ل(شاه إيران) ويطلب إليه أن يحشد قوات أمام العراق لكى يشعر العراق أنه مهدد من الخلف ولا يستطيع أن يتقدم لا من الأردن ولا إلى سوريا وبالفعل في هذا الوقت.. تتحرك المسارح "السياسة" و"التاريخ" و"الحرب" الكل يمشى مع بعضه. وحينما تحدث مستشار الأمن القومى مع (شاه إيران) كانت الكتابات والوثائق كلها مسجلة وأجد أن السفير الأمريكى في طهران يقابل الشاه.. والشاه مستعد.. وفوراً سوف تبدأ المواقع الموجودة في إيران بإطلاق النار.. وتتحرك شمالى كردستان لكى تشعر الحكومة العراقية أنها مهددة في عقر دارها.. ووقتها لا تستطيع أن تساعد لا فلسطينيين ولا أردنيين.. ويجرى هذا وينشأ موقف ليس خطيراً.. لأنه في ذلك الوقت إذا كان هناك تحذير سواء من الاتحاد السوفييتى مباشرة أو من القاهرة.. أو من كل الأطراف.. وجد السوريين أنهم هموا بشيء ثم لا يستطيعون تكملتهُ فقرروا أن يعودوا مع غروب الشمس.. قبل اللحظة المقررة للضرب عادت القوات لسوريا ونزل الليل.. ولم يكن هناك داعٍ لتدخل إسرائيل وعمل سياسى وكل مشهد من مشاهد التاريخ..

الثقافة من أثر التجربة

وأخطر شيء في الحروب والسياسة وفي كل شيء.. أن نتعامل مع الحوادث بعمق.. واستفادة.. وتحليل.. وليس باعتبارها مجرد حوادث تجرى بنحوٍ أو بآخر.. ولكن ما هى الدروس التى يتعلمها الناس والعظات؟.. لأنه يقال باستمرار أن الثقافة من أثر التجربة.

كما أن تفاصيل التجارب قد تُنسى.. وتضيع من الذاكرة.. لكن يبقى في الوعى باستمرار أثر ووعى هذه التجارب.. متمثلا في الثقافة التى أنشأتها هذه التجارب.. وهذا في واقع الأمر ثروة البشرية.. وهذا هو الكنز الموجود لدى البشرية والثقافة التى هى حصيلة كل ما فعلناه وجهزته أجيال سابقة صواب أو خطأ يتركز في أشياء تبقى وأشياء تؤثر فينا إلى مدى طويل.

وأعتقد أن أخطر ما أسفرت عنه هذه المسرحية كلها وبعضها كان عبثيا لكنها أسفرت عن أشياء لا نزال نعيش فيها.. هى ظهور مجموعة أوراق هى مبدأ (نيكسون) وكان ولايزال يطبق حتى هذه اللحظة.. وكان قائما على أشياء غريبة وأنها لا تستطيع ولا تقدر ولا تلزم أن تواجه كل أزمة موجودة تنشأ في هذا العالم لكن عليها أن تعتمد على مجموعة من النظم المعتمدة كوكلاء رسميين.. وكيل رسمى لها في كل منطقة ويعطى له أهمية سياسية..

وقوة عسكرية ومساعدات اقتصادية وإمكانات إعلامية ليؤثر على الإقليم المحيط.. وإمكانية تدخل تؤدى إلى مهمة الشرطة.. وفي كل دولة القوى المركزية الموجود فيها كل وسائل السلاح لكن وكيل الأمن وللنظام في كل حى من أحياء أى بلد في الدنيا هى قسم الشرطة.. والولايات المتحدة تريد أن تنشئ إدارة أمن محلية تتولى الأمن في منطقة معينة بتوكيل محدد يعطى الوسائل ثم ينفذ المهام.. ويتلقى ما يساويه.. وفي ذلك الوقت أجد وسائل واضحة لاعتماد وإعطاء وكلاء محليين سلطة وفرصة وإمكانات لضبط الأمن لأن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تضبط الأمن في كل مكان وعليها أن تضع سياسة جديدة.. وفي منطقة الشرق الأوسط اعتمد في المنطقة وكيلين يتوليان ضبط الأمن فيها وكيل أول إسرائيل تضبط في المشرق.. و(شاه إيران) يضبط في الخليج وأقصى الشرق.. وأصبح هناك وكيلان (شاه إيران) وإسرائيل.. والغريب أن هذا النظام المعتمد لضبط الأمن وهو الموجود في مبدأ (نيكسون) وهو العبر والدروس.. والغريب اعتماد (شاه إيران).. وأنه وقت ما اعتمد هذا الوكيل الأمريكى لم نفتح فمنا

جميعاً بأى كلمة أمامه.. لكن عندما سقط هذا الوكيل في طهران.. كلنا أصبحنا نجد عداء في النظام الجمهورى في إيران.. ولأننا ببساطة لا نحدد الصديق والعدو وتهمنا مشاهد هذه المسرحية لأنها من التجارب لكن ثقافة التجربة ضاعت منا وعدنا تقريباً مع الكلام الذي قاله سقراط أو ما نقلوه آله سقراط عنه أن الآلهة لا تنتقم من أحد لكنها لما تغضب على طرف تكلفه نفسه بأن يدمر نفسه.

❖❖❖

و في ربيع سنة (١٩٧٠) وبالتحديد في شهور مارس وأبريل ومايو من تلك السنة بدا أن الحركة المتدفقة على كل الطرق ومن مختلف الاتجاهات أصبحت تؤدى إلى موضع ما بالذات.. أو إلى مهمة معينة.. وهو موضوع لم يعد مُمكناً أن ينتظر.. أو يؤجل وهو موضوع العملية العسكرية الكبرى التى تستهدف العبور بالدرجة الأولى.. أى تنفيذ خطة إزالة آثار العدوان.. أو البدء في تنفيذ خطة آثار العدوان مع العلم أن هذه المهمة سوف تأخذ وقتاً كبيراً لأن هذه معركة ليست سهلة في ظروفها.. لكن كان هناك إحساس أنه هنا ومن كل هذه الحركة المتدفقة ومن كل هذه الاتجاهات هناك موعد ومهمة ومكان لا بد من لقاء عنده ولا بد من حركة عنده.. وهى ليست حرب الاستنزاف لكن نقلة أخرى في الحرب نحو بداية تحرير الأرض.

وكان هناك تصور عند العرب والعالم ساد طويلا هو أن العرب يستطيعون تحمل هزائم لأنهم ثابتون في الأرض ولأن جذورهم ممتدة ضاربة في أعماق التاريخ ولأنهم في أرضهم وفي أوطانهم فالتاريخ معهم والثقافة معهم والحضارة معهم والموقع ملكهم وعددهم كبير جداً.. حيث كان بإسرائيل من ٣ ملايين إلى ٣ ملايين ونصف المليون مهاجر والعرب من ١٨٠ إلى ٢٠٠ مليون عربى.

وأظن أن صانع القرار المصرى كان يدرك أننا أمام تحد في ميدان القتال لا نستطيع أن نخسره.. وأنا أتذكر المنطق الذي كان يقوله (جمال عبد الناصر) بعد ما خسرناه من سنة (٦٧) والطريقة التى خسرنا بها.. نحن لا نستطيع الآن ولا نملك أن نضيع هذه الفرصة في المرات القادمة وهذه الفرصة القادمة لا بد أن ننجح فيها ولا يمكن أن تحتمل فكرة أى فشل فيها.. لأنه ببساطة بعد (٦٧) هناك جرح غائر وبعد (٦٧) هناك جهد ضخم جداً بذله الشعب المصرى.. الشيء الآخر أن الذي يسيطر أننا لا نتوقع تغيير الموقف الدولى.

وفي ذلك الوقت كنت أحاول أن أعرض ما الطرق التى كانت الحركة تجرى عليها.. وقد بدا أن الاستعداد العسكرى قد وصل إلى درجة اعتبرت كافية وزيادة.. طبقاً للتقرير الذي كتبه الفريق محمد فوزى في ذلك الوقت.. وقال فيه إن قواتنا المسلحة جاهزة للعمليات وعلى خط القتال وتقف هناك خمس فرق مشاه و٣ فرق ميكانيكية وفرقتان مدرعتان و٣ لواءات مدرعة مستقلة و٣ كتائب استطلاع برى ولواء إنزال بحرى.

لم تكن المهمة في ذلك الوقت فهم نظرية الأمن الإسرائيلى لأنه إذا تم كسر نظرية الأمن الإسرائيلى فقد تم فتح الطريق بلا حدود.. لأن نظرية الأمن الإسرائيلى تعنى ما هو أكثر بكثير من نظرية القتال.

وفي ذلك الوقت نظرية الأمن الإسرائيلى قادرة على الردع وبقسوة منذ الوهلة الأولى.. وهنا قال الفريق فوزى إن أول ما يبدو على أول موعد على الطرق المؤدية إلى هذا اللقاء وهذه المهمة على هذا الطريق هى القوة المسلحة وهنا قالت القوات المسلحة إنها قادرة على تنفيذ الخطة الموجودة في ذلك الوقت وهى خطة في منتهى البساطة وتحدثت عنها في ذلك الوقت وهى جرانيت واحد. وهناك جرانيت (٢) وجرانيت (٣) ولكن هذه الخطط كانت خارج الحساب في ذلك الوقت.

كانت قواتنا المسلحة المصرية تحتاج باستمرار إلى قاذفات مقاتلة ولم يكن لدينا وقال لنا الاتحاد السوفييتى إنه ليس لديه قاذفات تؤدى ما نريده.. ولديهم قاذفات ثقيلة مجهزة للردع النووى والحرب النووية وهذه لا تصلح لهذه المهام التى نريدها.. وكان هناك اعتقاد في القوات المسلحة أنها ليس بها قاذفة وظهرت فرصة هائلة مع الثورة الليبية وحاول كل الناس استرضاءها فحاول الأمريكان أن يجددوا مع الليبيين قاعدة ويليس ويلوحوا لهم بأنه من الممكن أن يبيعوا لهم طائرات فانتوم وفي ذلك الوقت حاولت فرنسا الاقتراب.. وأنها من الممكن أن تبيع لهم طائرات من طراز ميراج وكل الأطراف الأوروبية والغربية كانت تعرف الحركات المُسماة (ثورية) في العالم العربى بها ضباط .. ومدى احتياجها للسلاح.

وفي ذلك الوقت طلب منى أن أقابل العقيد (القذافي) خاصةً وأنا في ذلك الوقت الوحيد الذي أعرف (القذافي) من المجموعة القريبة من (جمال عبد الناصر).

وبالفعل ذهبت له ومعى جواب من (عبد الناصر) عبارة عن رسالة مكتوبة.. وقابلت العقيد (القذافى) وأعضاء من مكتب قيادة الثورة وقلت لهم: لدى رسالة من الرئيس ومقتضاها أن الأمريكان لن يعطوكم طائرة فانتوم والروس لديهم طائرة ميج المعدلة M.S وأى صفقة ستقومون بها مع الروس ستكون صفقة مكررة.. وطلبنا منهم شراء الطائرة ميراج التى بها كل المواصفات وقلت لهم إنه مجال للشطارة وأن الأمريكان سيعرفون بالصفقة والحلفاء سيتبادلون المعلومات.

ولكن هناك منطقة معينة لمنافسة أمريكية فرنسية سواء على المنطقة أو على بيع السلاح أو بالنفوذ السياسى أو بالبحر الأبيض هناك مساحة نزاع نستطيع استغلالها وبالتالى إذا استطعتم شراء الميراج فاعقدوا صفقة بها ونحن طلبنا أن يحاولوا شراء ما بين٥٠ و١٠٠ طائرة ميراج.. وهم سيدفعون النقود.. ونحن جاهزون للمساعدة على عقد الصفقة وتدريب الليبيين مع مصريين بجوازات ليبية وتسير الصفقة.. وعلى ما بدا لى فإن الرسالة توافقت مع الليبيين فى ذلك الوقت.

والليبيون استطاعوا أن يعقدوا صفقة ١٠٠ طائرة ميراج وخمسة طائرات تدريب.. وفى ذلك الوقت الذي كنت أتحدث فيه عن الطريق لمقاربة موعدها ومهمتها أصبح موجودا نحو ما بين ٣٨ و٤٠ طائرة ميراج.. وأقول إن الفرنسيين لم يضعوا آخر ما هو موجود فى هذه الطائرات لكن هذه الطائرات كانت كافية للمهمة.. وهذا هو الطريق الثانى.. أما الشيء الثالث فهو أمر موجود أمام صانع القرار المصرى هو رفع درجة الصراع بيننا وبين إسرائيل فى لحظة القتال من المستوى المحلى "جبهة مصرية واحدة".. إلى مستوى معركة عربية إسرائيلية ثم إلى مستوى توتر دولى خطير تتحرك فى ظله موازين أكبر من الصراع العربى الإسرائيلى.

لكننا كنا نريد لحظة القتال أن يكون فيها تأهب دولى على الأقل وألا تكون المسائل متروكة فى ذلك الوقت من المعركة لموازين محلية على الأرض فى هذا الشريط وراء قناة السويس وهذا الشريط المقسم إلى ١٥ كيلو على كل جبهة والذي ستدور فيه المعركة سوف يؤثر فى مصائر العالم.

أما الطريق الرابع فهو وجود سوفييتى كثيف مع أسلحة سوفييتية كثيرة حتى مع دخول أسلحة فرنسية بدا أن الوضع فى الأقليم يهدد بخطر.. والطريق الرابع هنا هو أن السوفييت وعندهم أناس وضحايا فى مصر بدأوا بتعبئة الرأى العام للاتحاد السوفييتى

فيأتى جنرال سوفييتى ويقرأ رسالة يقول إن الرئيس برجينف يود إخطارك أنه في هذه اللحظة بدأ تعبئة كاملة في المصانع والجامعات والنقابات والجيش وكل مكان للوقوف معنا.. وهنا الطريق الخامس من خطة جرانيت وهو الوجود السوفييتى في البحر الأبيض بدأ يزيد خاصةً عند مخارج البحر الأسود.

الشيء السادس قلق الرئيس (نيكسون) نفسه وفي ذلك الوقت أجد محادثة بينه وبين رابين.. ورابين في ذلك الوقت كان سفير إسرائيل في واشنطن وكانوا يضغطون ويريدون رداً من الأمريكان عما يحدث ويعطونهم سلاحاً.. ووجدت (نيكسون) جالساً يشرح الأمر للسفير الإسرائيلى في واشنطن وهو الجنرال رابين.. وقال له لا تعتقد أن المسألة مسألة بترول بالنسبة للعرب.. أنا في كل مرة تضربون فيها العرب أكون سعيداً وعند التهديد أيضاً أكون راضياً.. ويقول رابين في الوثيقة والتى كتبها في مذكراته بعد ذلك أن هذه الصواريخ لم نتوصل للدفاع ضدها وتحتاج للدفاع عنها والولايات المتحدة لم تتوصل بعد لصاروخ مضاد.

والطريق السابع من جرانيت العبور وهو عنصر مهم فقد أدرك (عبد الناصر) في اجتماع قمة عقد في طرابلس لدول المواجهه في ذلك الوقت أواخر يونيو سنة (٧٠) أنه سيخوض المعركة بمفرده.. وكان (عبد الناصر) حريصا وخرج من طرابلس وتعليماته تنفيذ جرانيت (١) فقط وليس جرانيت (٢) والوصول للمضايق وليس جرانيت) وهى الوصول للحدود ولم ترسم بعد وكانت في إطار التخطيط.

وهنا كان (عبد الناصر) محدداً لهدف معركته وما الذي يمكن أن يترتب عليها وأنه مستعد لمخاطرة البدء.. ومعتقداً أنه عندما يبدأ ويتم العبور سوف يحرك آخرين وبالأمل جماهير عربية بلا حدود وهذا كان الطريق السابع الذي كان يسير إليه كل طرق الحركة.

ووقع (عبد الناصر) خطتين والتى بها جرانيت (١) عبور بحماية حائط صواريخ ووقع أيضاً خطة في منتهى الأهمية وهى خطة ٢٠٠ ولها قصة وبداية ففي يوم من الأيام أواخر سنة (٦٧) كتبت مقالة عن شخص في القوات المسلحة.. لم أذكر اسمه وهو كان موجودا في أحد أهم فروع القوات المسلحة يطلب مقابلتى في مكتبى في الأهرام.. ولا أريد أن أذكر اسمه.. وقال لى إنه لم يعد ممكنا أن نفاجأ مرة أخرى وأريد أن أقول لك بأمانة المسئولية وأريدك أن تنقل هذا لـ(عبد الناصر).. وأن المفاجأة ما زالت ممكنة

وأنا موجود وأعرف بحرب الصواريخ ونتصور أنا لا نستطيع أن نفاجئ وقال إن الإسرائيليين من الممكن أن يقوموا بعبور مضاد من الشرق إلى الغرب لدينا لتدمير حائط الصواريخ عند بنائه.

واستمعت للضابط جيداً وقدرتهُ وقدرت اهتمامه.. وبعده بثلاثة أيام التقيت (عبد الناصر) وقلت له ما حدث وذكرت اسم الضابط ورتبته.. فقال لى (عبد الناصر) إنهم يجهزون أيضاً خطة العبور المضاد لمنع الإسرائيليين من غلق الجسور.. فقال لى احضر لى هذا الضابط.. وكان (عبد الناصر) حريصا على مقابلة الناس من خارج المحيط.. وقد سجلت هذه المقابلة ومعى محضر الجلسة بخط (سامى شرف) والمحضر مكتوب فيه اجتماع بين (عبد الناصر) وضابط كبير.

والرئيس قال: أهلاً وسهلاً.. (هيكل) قال لى إنك قابلته مقابلة طويلة ووجدت فرصة أسمع منك مباشرة.. وقال الضابط إنه يشكرنى على إتاحة فرصة لمقابلتك وأن هناك حقائق لا أعرف إذا كانت وصلت لحضرتك أم لا.. وبدا هذا الضابط يتحدث وكأنه يتحدث عن الثغرة.. وقال إنه يعرف استعداد القوات المسلحة لاحتمال عبور إسرائيلى مضاد لكننى أخشى أن الإسرائيليين أمامهم فرصة للقيام بما هو أكثر وأرجو يا سيادة الرئيس التنبه لها.. لأن الإسرائيليين من الممكن أن يعبروا بدبابات لا يكون هدفها منع القوات من التدفق على الكبارى ولكن لتكون ثغرة دخول وتطويق مواقع الصواريخ وتدميرها وهو الغطاء الذي يحمى القوات للتقدم.. ويحكى الضابط مخاوفه و(عبد الناصر) يسمعه.. وقال الضابط إنهم من الممكن أن يفكروا في "تقشير" حائط الصواريخ لحرمان القوات حتى إذا تمكنت وتمركزت هناك من حائط الصواريخ التى وراءها.. وقد تم وضع الخطة ٢٠٠ لمواجهة هذا الاحتمال والذي قد تحقق في حرب أكتوبر.. فالتاريخ مرات والوقائع مرات عندما تضيع الذاكرة تضيع معها أشياء كثيرة جداً.. وخطة ٢٠٠ هى الطريق الثامن لصد العبور المضاد وحماية الصواريخ من تدميرها.

❖❖❖

خاتمة

هيكل بين يدي التاريخ.!!

كل ما قاله (هيكل) عبر شهاداته يبقى في إطار كونه مسائل يحسمها التاريخ وتحسمها وثائق عندما تظهر سوف تكشف كثيراً من الأسرار.. فما كشفه "(هيكل)" من وثائق وتسجيلات عبر جميع حلقات التجربة مودعة في أرشيف سري خاص به.. لكن تبقى دوماً شهاداته لها قيمتها بدليل ما تحدثه دوماً من كل هذه الأعاصير..

لكننا هنا لابد أن نشير لنقطةٍ هامة.. وهى أن (هيكل) كثيراً ما يذكر في أحاديثه بأنه كان يهوى دائماً الاحتفاظ بصورة على الأقل من كل وثيقة تكون محوراً للحديث بينه وبين الزعيم الراحل (جمال عبد الناصر)..

وكان ناصر يسأل دوماً (هيكل) :

(لا أدرى سر إصرارك على ذلك)

فكان يرد عليه بقوله : **سيأتي الوقت المناسب.. وسيحتاجني التاريخ لكي يقول كلمته من خلال تلك الأوراق!!..**

وعندما جاء الوقت المناسب رفض (هيكل) تسليم ما يملكه من أوراق ومستندات إلى الجهات المسئولة في مصر.. بل والأخطر.. والأدهى أنه يحتفظ بها في خزائن خاصة ببنوك سويسرا.. !!

والحقيقة الأخرى أن (هيكل) لم يكتفِ بما حصل عليه من أوراق بعلم ناصر في حياته.. بل الأدهى أنه عندما رحل (عبد الناصر).. وَرِثَ (هيكل) كل أرشيف (عبد الناصر) كاملاً.. وتلك واحدة من الظواهر الغريبة والعجيبة في مصر.

فكيف يمكن للتاريخ الوطني على امتداد ثمانية عشر عاماً.. من أخطر أعوام التاريخ الحديث لهذا الوطن أن يكون ملكاً لشخص واحد.. يأخذ منه ما يشاء.. ويحذف منه ما يشاء.. ويُعدِّل فيه.. ويرسمه حسب مزاجه وأيديولوجيته.

ونحن نعلم ونعرف أن مثل هذا الأرشيف يجب أن يكون في حوزة الدِول بعد رحيل الحكام والزعماء.. وليس في حوزة شخص واحد أياً كان موقعه من النظام.. إلا إذا كان (عبد الناصر) وتاريخ (عبد الناصر) ليس مُلكاً لمصر وللدولة المصرية.. ولكنه مُلكُ لـ(هيكل) فقط؟!

ومن خلال هذا الأرشيف - إن صدقاً وإن كذباً - كتب (هيكل) معظم ما سبق.. من خلال وقائع لم يكن فيه من شاهدٍ غير (هيكل)!!.

وهنا نتوقف عن الكلام المباح.. الذي رواه لنا شهريار الصحافة.. وإمبراطور صاحبة الجلالة.. وأشهر من وطأت قدماه بلاطها..

نتوقف عند كيفية إزالة آثار العدوان عدوان (٦٧) ليسدل لنا (هيكل) الستار عن مرحلة ما قبل (٧٣) باستعراض شخوص المشهد السياسي دولياً.. وعربياً.. وبعد أن أعطى من مذكراته لكل حاكم أو رئيس أوراق دورِه الذي أداه على مسرح التاريخ.. ونَظَرَ كيف شاء.. وأَرَخَ كما يشاء.. وجلس على كرسي المخرج ليأمر لنا بفتح الستار.. وبعد أن انتهى الفصل الأول من المسرحية.. تركنا على وعد بالفصل الثاني.. والذي سيبدأه بوفاة أعز الأشخاص له.. ولنا وهو الخالد الزعيم "(جمال عبد الناصر)".. وارتقاء عدوه وخصمه اللدود (أنور السادات) مقاليد الحكم في مصر.. حيث أعلن (هيكل) أن العلاقة بينه وبين (السادات) هي موضوع الحلقات الجديدة في "سيرة حياة" التي بدأ بثها مع بدايات عام(٢٠١١) وهي حلقات لا شك أنها سوف تحمل مفاجئات خطيرة تشرح وتفسر بالوثائق قصة ما جرى بعد رحيل (جمال عبد الناصر) المفاجيء".

لكننا الآن.. وعند ما سبق توقف بنا الأستاذ عبر شطآن تجربة حياته..

وتوقفت أيضاً قراءتنا لها..

وإن كان في العمر بقية لكاتبنا.. ولنا.. فسنحاول فيما سيلي من طبعات هذا الكتاب إضافة ما يضيفه كاتبنا من تجربة حياته..

والآن:

بعد أن استعرضنا من خلال الصفحات السابقة الجزء المطروح من تجربة حياة كاتبنا الكبير يبقى أن نقول (الظاهرة الهيكلية) مازالت.. وستظل لسنواتٍ.. وسنوات مادة شديدة الخصوبة لكل الباحثين.. والدارسين.. وحتى القراء العاديين.. فالرجل "**ظاهرة استثنائية** " بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. والظاهرة لابد لها أن تبقى دوماً رهن الدراسة.. ومحلاً للخلاف.. والاتفاق.. ولعل هذا ما قلناه.. وأكدنا عليه من خلال هذا الكتاب.. حيث بحثنا بكل موضوعية ما استطعنا من جوانب (هيكل) الظاهرة.. ورسمنا بريشة الكلمات بورتريه وصورة لـ(هيكل) الإنسان.. بقي أن نقول أننا لسنا ضده.. بل نُكن له كل احترامٍ.. وتقدير.. وكذلك لسنا معه على طول الخط.. فلنا مآخذنا.

وقبل أن نختم نتوقف عند ما قالته صحيفة هاآرتس الإسرائيلية الشهيرة[1] عن (هيكل):

"إن الكاتب (محمد حسنين هيكل) لا يرتاح لحظة واحدة.. ورغم تجاوزه الثمانين من العمر فإنه يحاول شد وجه مصر المغضن بالتجاعيد.. ويهاجم بشدة سياسات الرئيس مبارك.. وكذلك مسيرة السلام مع إسرائيل.. وشكل العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية.. ويظهر بشكل دائم في قناة الجزيرة القطرية ليقدم برنامجه حتى صار كبير الكهنة الذي يسعى الجميع للتعرف على آخر نبوءاته".

وتضيف هاآرتس: "لا يمكن اختزال مكانة (هيكل) ووزنه في مجرد كونه مؤرخاً سياسياً.. فهو الرجل الذي اقترب بشدة من الرئيس عبدالناصر.. وظل أقوى رئيس تحرير عرفته صحيفة "الأهرام" طوال ١٧ سنة.. ولك أن تقول أن (هيكل) هو فيلسوف العصر الذي لا يجرؤ حتى النظام المصرى على المساس به.. رغم النقد اللاذع الذي يوجهه (هيكل) لهذا النظام".

---

(١) في تقريرها الذي أعده «تسفي بارئيل» محرر الشؤون العربية بالجريدة نقلاً عن صحيفة المصري اليوم في عددها رقم ١٩٦٤ الصادر بتاريخ ٢٩ /١٠ /٢٠٠٩.

وفي النهابة نختم رحلتنا بما قاله "أنتوني ناتنج" وزير الدولة للشئون الخارجية البريطانية في وزارة أنتوني إيدن ضمن برنامج عن (محمد حسنين هيكل) أخرجته هيئة الإذاعة البريطانية وبثته على موجاتها يوم ١٤ ديسمبر ١٩٧٨ في سلسلة "صور شخصية" إذ قال عنه:

"عندما كان قرب القمة كان الكل يهتمون بما يعرفه... وعندما ابتعد عن القمة تحول اهتمام الكل إلى ما يفكر فيه".

ونتوقف عند ما قلناه في البداية.. في مقدمة الكتاب:

أنه وبغض النظر عما قيل.. ويُقال عن (هيكل).. سيظل هو الأهم.. والأكثر جدلاً بين صحفيي.. وكتاب تاريخنا العربى المعاصر.

ومهما كان حبنا واحترامنا للأستاذ (هيكل).. لكن يبقى حبنا لله.. ثم الوطن والتاريخ.. والحقيقة أكبر.

❖❖❖

عصام عبد الفتاح
elbtrawy@yahoo.com